

تفسير ابن كثير

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ^ج وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة ، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى ، عليه السلام ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل ، وقتال من فيها من العماليق الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا ، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم ، كما ذكره تعالى في سورة المائدة ؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس ، كما نص على ذلك السدي ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، [وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد وقد قال الله تعالى : (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) الآيات] . [المائدة : 21 - 24] وقال آخرون : هي أريحا [ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد] وهذا بعيد ؛ لأنها ليست على طريقهم ، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا [وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر ، حكاه فخر الدين في تفسيره ، والصحيح هو الأول ؛ لأنها بيت المقدس] .

وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون ، عليه السلام ، وفتحها
الله عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، وأما
أريحا فقريية ليست مقصودة لبني إسرائيل ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد
- (سجدا) أي : شكرا الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، ورد بلدهم
إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال . قال العوفي في تفسيره ، عن ابن عباس أنه كان يقول
في قوله : (وادخلوا الباب سجدا) أي ركعا . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ،
حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، وعن
سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : (وادخلوا الباب سجدا) قال : ركعا من باب
صغير . رواه الحاكم من حديث سفيان ، به . ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان ، وهو
الثوري ، به . وزاد : فدخلوا من قبل استاهم . [وقال الحسن البصري : أمروا أن يسجدوا
على وجوههم حال دخولهم ، واستبعده الرازي ، وحكى عن بعضهم : أن المراد بالسجود
ها هنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته] . وقال خصيف : قال عكرمة ، قال ابن عباس :
كان الباب قبل القبلة . وقال [ابن عباس] ومجاهد ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك : هو

باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس ، [وحكى الرازي عن بعضهم أنه عن باب جهة
من جهات القرية] . وقال خصيف : قال عكرمة : قال ابن عباس : فدخلوا على شق ،
وقال السدي ، عن أبي سعيد الأزدي ، عن أبي الكنود ، عن عبد الله بن مسعود : وقيل
لهم ادخلوا الباب سجدا ، فدخلوا مقنعي رؤوسهم ، أي : رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا
. وقوله : (وقولوا حطة) قال الثوري عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ،
عن ابن عباس : (وقولوا حطة) قال : مغفرة ، استغفروا . وروي عن عطاء ، والحسن ،
وقتادة ، والربيع بن أنس ، نحوه . وقال الضحاک عن ابن عباس : (وقولوا حطة) قال :
قولوا : هذا الأمر حق ، كما قيل لكم . وقال عكرمة : قولوا : لا إله إلا الله . وقال الأوزاعي
: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى : (وقولوا حطة) فكتب إليه :
أن أقروا بالذنب . وقال الحسن وقتادة : أي احطط عنا خطايانا . (نغفر لكم خطاياكم
وسنزيد المحسنين) هذا جواب الأمر ، أي : إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات
وضاعفنا لكم الحسنات . وحاصل الأمر : أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل
والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى

ذلك من المحبوب الله تعالى ، كما قال تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) [سورة النصر]
فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر ، وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها ، وأقره على ذلك عمر [بن الخطاب]
رضي الله عنه . ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ، ونعى إليه روحه الكريمة أيضا ؛ ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر ، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلا إليها من الثنية العليا ، وإنه الخاضع لربه حتى إن عثنونه ليمس مورك رحله ، يشكر الله على ذلك . ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضحى ، فقال بعضهم : هذه صلاة الضحى ، وقال آخرون : بل هي صلاة الفتح ، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله ، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات ، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ؛ وقيل : يصلها كلها بتسليم واحد ، والله أعلم .